الغربة والحيرة والذهول بين الشاعرين الجاهلي والمعاصر

بقلم الدكتور جميل الخياط

الشاعر الجاهلي لا وطن له او هو غريب في بيته ، والشاعر الحديث منفي في وطنه او في خارجه ، فهل هناك ما يربط بين الجد والحفيد في الغربة والتوحد والحيرة والذهول ؟!

يضرب الشاعر الجاهلي في هذه المفازات الشاسعة المخيفة راكبا ناقته مطرقا مفكرا في ابعاد هذه الصحراء، ويسري في الليل الموحش يهديه نجم ، وقد يلف الحداء تهويماته اللامتناهية ، او يمتطي صهوة جواده في النهار مسرعا دؤوبا الى غاية مجهولة ، وكأنه يهرب من مطارد موهوم ، وتمر به فترات من الذهول يتلفت فيها حوله محدقا في هذه الرمال المترامية بحسرة ، يريد تفسيرا او يحلم بالرفض ، ويدرك ان لا بيت له ولا مستقر ، فهو منفي في وطنه ، هائم في صحرائه ، قلق في منتجعه .

ويجد الشاعر في تشتته وضياعه ظلا وارفا تمثله الحبيبة فينهد اليها بحثا عن ملجأ وسكينة فتنسيه مظاهر حياته الذاهلة الحائرة وتبلغ به النشوة اقصى حدودها ثم تأتي ساعة الفراق سريعة صاعقة فيزم اهلها الركاب ليلا فالمكان اقفر بعد خصب والمياه تصوحت والاغصان يبست ، فيقف مشدوها لا يطيق لهذا الفراق منعا ولا يدري الى اين سيتجه الركب والى اي سراب حقيقي سيفيء ، وهل سيكتب له لقاء بعد فراق ووصل بعد هجر ؟!

ويكثر من التفكير في رحلة الحبيبة المجهولة ، وقد يخمن او يرجم بالغيب كما فعل لبيد بذهول تام تفصح عنه هذه الاماكن التي يستغرق الشاعر في تعدادها :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت اسبابها ورمامها
مرية حلت بفيد وجاورت اهل العراق فاين منك مرامها
بمشارق الجبلين او بمحجر فتضمنتها فردة فرخامها
فعوائق ان ايمنت فمظنة منها وخاف القهر او طلخامها

ويلف الياس شاعرنا باحاسيس الالم الدائم ويعود يضرب ثانية في هذه المفازات الشاسعة تؤلمه الذكرى ويضنيه البعاد ويعاوده الحنين بين فترة واخرى ، وقد يمر في روحاته وغدواته بديار الحبيبة وقد انمحت آثارها او كادت الا من نؤي ودمنة واثفية فيتبين هذه الآثار بحرقة ـ بعد بحث وتدقيق ـ وحين يتأكد من موطن الذكريات يقف مضطربا لا يستطيع ان يخفي انفعالاته فتترقرق الدمعة من عينيه شاهدة على الضياع الابدي ، ويبلغ الالم اقصاه وتتناقل الصحراء مواجده عبر الاجيال والدهور :

فما وجدت بها شيئا الوذ به الا الثمام والا موقد النار

فهو يكاد يقبل حتى الاحجار ويلوذ بها من واقعه ويشم هذا التراب الذي كانت تميس عليه الحبيبة جيئة وذهوبا جالسة او لاهية او راعية او ساقية ، ولا يملك وهو في مثل هذه الحال الا ان يقف ويستوقف :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤي واحجار
اقوى واقفر من نعم وغيره هوج الرياح بهابي الترب موار
وقفت فيها سراة اليوم اسالها عن آل نعم أمونا عبر اسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات اخبار

والنابغة يريد ان يكلم ديار الحبيبة بعد ان يطلق احتجاجه الصارخ بان التحية لن تصيب منها شيئا ، ولكن ذهوله يقوده الى ان يحدث تلك الاحجار ويستنطقها ثم يعود ويسترجع الماضي برؤية واضحة وتغيم امامه الصورة الماثلة لتحل مكانها الصورة الذاهبة التي يعيدها خياله الى الوجود :

وقد اراني ونعما لاهيين معا والدهن والعيش لم يهمم بامرار
ايام تخبرني نعم واخبرها ما اكتم الناس من حاجي واسراري

ثم يستعيد التجربة التي تعناها الشعراء جميعا حين قضت طبيعة الصحراء على الاحبة بالانفصال الدائم :

رأيت نعما واصحابي على عجل والعيس للبين قد شدت باكوار
فريع قلبي وكانت نظرة عرضت حينا وتوفيق اقدار لاقدار

ويبلغ به الذهول ذروته والانبهار اقصى حالاته فتضطرب امامه الرؤى فيستغيث بصاحبه متشبثا متوسلا :

اقول والنجم قد مالت اواخره الى المغيب تثبت نظرة حار
ألمحة من سنا برق رأى بصري أم وجه نعم بدا لي ام سنا نار
بل وجه نعم بدا والليل معتكر فلاح من بين اثواب واستار

أهذا الذي يتراءى امام الشاعر سنا برق ام وجه نعم ام سنا نار، بل هو ـ بالتأكيد ـ وجه نعم . وهكذا يصل الذهول بالشاعر الى الغيبوبة الموقتة ، وحين يفصح النابغة عن احتجاجه : « ماذا تحيون من نؤي واحجار » يعبر عن اقصى درجات الحيرة ، وقد تشابهت احاسيس الشعراء ازاء هذا الموقف فقد تساءل لبيد ايضا :

فوقفت اسالها وكيف سؤالنا صما خوالد ما يبين كلامها

والملك الضليل سبق الشعراء الى هذه الصلة القوية القائمة بين الشاعر وبين الطلل واحتج بان لا معول على الرسم الدارس ولكنه بالرغم من ذلك لا ينفك يخاطبه ويبكيه ويقبله ويحدده تحديدا جغرافيا من جهاته الاربع ، وكان قد استرجع ساعة الفراق واخبرنا انه اختفى بين الشجيرات يرقب ركب الحبيبة الذاهب باكيا عاجزا .

ولا يقف الشاعر الجاهلي ولا يستوقف حتى يتأكد من منتجع الاحبة وموطن الذكريات لشدة حبه له وتشبثه به كرمز للارض الثابتة والسكن الدائم ، والصحراء متشابهة ومعالمها ضئيلة قليلة وقد تخطىء ذاكرة الشاعر فيصرف ساعات وساعات باحثا منقبا عن نؤي بعينه كان يسور خيمة اللقاء او دمنة شاهدة على حب عابر ، وقد يصعب او يستحيل على الشاعر معرفة ذلك الطلب بالذات فهو يبدو احيانا كآثار قديمة لوشم على يد كما يقول طرفة :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وزهير يضن بدموعه ومشاعره ان تتبدد على مكان متوهم لان الذكريات ثارت في نفسه بعد عشرين عاما مضت على منتجع اللهو والملاذ الظليل وقد يكذب الشاهد والطلل :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم
فلما عرفت الدار قلت لربعها الا انعم صباحا ايها الربع واسلم

ويحار عنترة الفارس الشاعر فيتساءل في ذهول تام :

هل غادر الشعراء من متردم ام هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

ويصعب على من سكن الحضر ولم يعهد البداوة في اطوارها الطبيعية ان يشارك الشاعر في التجربة الطللية ، وقد يذهب بعض النقاد الى ان الوقوف على الاطلال تقليد داب عليه الشعراء في مطالع قصائدهم ليتخلصوا بعد ذلك الى الموضوع المراد هجاء او مدحا او وصفا الخ... ، او انهم اعتبروا الوقوف على الاطلال مقدمة لقصائدهم تشد اليها اسماع المصغين وانتباههم وتؤدي بهم الى ما يريد الشاعر ان يفصح عنه ، وان صح هذا في الشعر الاموي او العباسي مثلا فهو لا يصح بالنسبة الى قسم من الشعراء الجاهليين ، فلا شك انهم قد مروا بالتجربة نفسها وعانوا من الغربة والحيرة والوحدة والحنين الى ارض ثابتة فافتتحوا قصائدهم بالبكاء على الاطلال تعبيرا عن تجربة بداها احدهم في شعره واستساغها واستحسنها الآخرون .

هذه الحيرة العميقة كانت تلف حياة الشاعر الجاهلي فلا يستقر على حال ولا يني يختلف ويتقلب في مشاعره واحاسيسه ويتحدث في قصائده عن موضوعات متعددة متشعبة وغير منسجمة احيانا ، وقد يخاطب الحجر او يحيي الرمال او يقبل الاثافي او يعطف على الوحش الذي سكن ديار الحبيبة او قد يؤدي به الامر الى ان يخرج على ما ترتايه القبيلة وتقره ويتمرد على حياة الصحراء الرتيبة وتقاليدها فتخلعه القبيلة وتنبذه فيصبح شريدا تائها في هذه الصحراء الواسعة فيمثل في جاهليته وتمرده طرازا طبيعيا عفويا لفريق من الناس الرافضين الغرباء في ديارهم ، وينهي الينا الفلام القتيل طرفةبنالعبد:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي
الى ان تحامتني العشيرة كلها وافردت افراد البعير المعبد

وما قتل طرفة الا استقلاله الشخصي وتمرده العفوي على مفاهيم عصره والحيرة العميقة التي تصيب الانسان في عالم الصحراء الواسع، وقصته مع عمرو بن كلثوم وتغزله باخته وهجاؤه اياه معروفة وقد ادت به ان يقتل مخمورا في البحرين ، واذا ما ذهبنا الى انها مختلقة فهي حتما تمثل في حقيقتها او تزييفها طرازا معينا من الاجواء التي احاطت بالشعر الجاهلي ، وقد اخبرنا طرفة انه يعيش للخمر والنساء والفروسية ولولا هذه الامور لما حفل بموت او حياة :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم احفل متى قام عودي
فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى اذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد

وكانت حياة قسم من الجاهليين لانتماء واضحا يتمثل في الشعراء الصعاليك بصورة خاصة ، وقد عبر هؤلاء الشعراء عما طاف في اذهانهم من افكار بصدق طبيعي يمكن ان تتوصل به الى معرفة الجو الذي عاشه الشاعر الجاهلي ونتبينه في قصائده المليئة ـ خاصة في المطالع ـ بالحيرة والحنين والتشتت والذهول .

ان التنقل الدائم طلبا للماء والكلأ جعل الشاعر يحس ان لا بيت له ، وهذه الصحراء المتشابهة الرتيبة المناظر حملت الشاعر على ان يحن لوطن وهو فيه ، وكأنه غريب مطارد ، ولذا قامت الصلة القوية بين الشاعر والطلل تعبيرا عن الحنين والتشتت اللذين كانا يلفان الشاعر الجاهلي بذهول عميق ، فاي وحدة قاتلة كانت تعصف بالشاعر فيخاطب طللا ويقبل حجرا ويشم ترابا ويذرف الدمع على الآثار التي ترتبط بارض حسب انها لا تتغير ، وتتمثل هذه الرابطة بحبيبة ذاهبة رمزا للحياة العائلية والاستقرار ، واطلال ثابتة تعود به الى الماضي المفقود .

***

وبعد اكثر من اربعة عشر قرنا ، وعبر هذه العصور المتعاقبة ، تلفت الشاعر المحدث ، كجده العظيم ، يحدق في الابعاد التي تلف حياته في هذا العصر الآلي المتناقض، فاضطربت شخصيته بين الرفض والخنوع والطبيعي والمفتعل ، وتوترت اعصابه بين حياة راكدة غبية يعيشها وبين توقيت سريع فرضته معطيات القرن العشرين على افكاره واخيلته فتطلع الى تغيير هذه القشرة الارضية وتجديدها، دفعة واحدة ، وكما اتخذ الشاعر الجاهلي من المرأة والدار علامات للاستقرار والتوطن والدعة والاطمئنان ، ووجد شعراء آخرون الحياة في كنف الممدوحين الاغنياء سبيلا الى الهروب من التشرد والغربة والعذاب الفكري ، حاول الشاعر الحديث منفعلا ومتعجلا ان يلوذ بفكرة او فلسفة او طريقة او اسطورة كوسيلة تحدد من انطلاقاته الذهنية المعذبة يفيء اليها كلما عصفت به نوازع التشتت والانبهار وشطت به لامحدودية الابداع الفني الى عوالم مجهولة ، ولكن شخصيته تمزقت بصورة مأساوية ، فلم يستطع ان يوفق بين محيطه الخارجي وبين مشاعره الداخلية العنيفة ، واخطأ توقيت زمانه الراكد بفكره الوثاب السريع الرؤى ، فالغربة والتشرد من المظاهر الشعرية التي حتم على بعض الشعراء قديما وحديثا ان يعانوها باشكال تختلف وتتفاوت حينا بعد حين ، فلا الدار ولا المرأة ولا الممدوح ولا المنصب ولا الشهرة ولا الجاه ولا الفكرة ولا حتى الوطن نفسه ـ خارجا او داخلا ـ يمكن ان ينقذ الشاعر الحقيقي من مأساة

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● الحياة الحب	لابراهيم محمد نجا	٣٠٠

وجوده وطواف ذهنه في عوالم غريبة وخروجه عن المألوف والمصطنع المتمثل في التزييف والفباء ، ويلخص السياب مأساة الشاعر بكلمات :

قرأت اسمي على صخرة
هنا ، في وحشة الصحراء
على آجرة حمراء
على قبر . فكيف يحس انسان يرى قبره ؟

وقد تمنى وهو على فراش الموت بعد رحلة مضنية من التنقل من ملاذ الى آخر ــ دون جدوى ــ ان لا يكون منفيا في موته كما كان منفيا في حياته عذابا وتوجعا فأراد ان يحصل على قبر :

ان مت يا وطني فقبر من مقابرك الحزينة
اقصى مناي .

ومثل ابي شبكة الذي حمل تابوته وسار بمأتمه كتب السياب وهو في الغربة قبل سنين طويلة من موته يشبه نفسه بالمسيح حاملا صليبه معه من منفى الى آخر:

الشمس اجمل في بلادي من سواها والظلام
حتى الظلام هناك اجمل فهو يحتضن العراق
واحسرتاه متى انام
فأحس ان على الوسادة
من ليلك الصيفي طلا فيه عطرك يا عراق
بين القرى المتهيبات خطاي والمدن الغريبة
غنيت تربتك الحبيبة
وحملتها فأنا المسيح يجر في المنفى صليبه

وكما التفت مسارب الصحراء وابعادها الشاسعة حول الشاعر الجاهلي رغمرته بالحيرة والذهول والتشتت تلتف دروب المدينة حول السياب فتتركه ممزقا ملتاعا :

وتلتف حولي دروب المدينة
حبالا من الطين يمضغن قلبي
ويعطين عن جمرة فيه طينة
حبالا من النار يجلدن عري الحقول الحزينة
ويحرقن جيكور في قاع قلبي
ويزرعن فيها رماد الضغينة

وينادي سعدي يوسف من منفاه وقد امتدت به الآفاق حتى آخر الدنيا واخذت رؤى شط العرب الفامض المستوحد النائي تعاوده في تطلعاته وتهويماته واحلامه :

سلاما ايها الحي الذي لم نغترب فيه
ولم نطعم مآكله ولم نترك مقاهيه
سلاما ايها الاعمى المغني قصة التيه
ويا متسوليه
وباعة التبغ المهرب والافاويه
ويا شيئا يفوح على ازقته
ويزهر في نواحيه
شممت على البعاد مدينتي فيه .

ويحمل عبد الوهاب البياتي الغربة معه الى اصقاع شتى من هذا العالم ، موكلا بفضاء الله يذرعه ، لا يحيا ولا يموت ، انما هو شيء بين شيئين ، يأتي ولا يأتي، حتى اصبحت الغربة سمة من سماته لا يستطيع ان يحيا بدونها وحتى استقطبت الغربة فيه فصارت هي الوطن ذاته فاذا افتقدها الشاعر فسيكون غريب غربتين :

القمر الاعمى ببطن الحوت
وانت في الغربة لا تحيا ولا تموت .

ويهاجر من بلد الى بلد يطارده المصير المجهول والحنين الى ظل وارف موهوم والى مستقر من الارض قد يجد نفسه فيه ــ ان عثر عليه ــ اكثر غربة وتشتتا وذهولا :

يا صرخات النور
ها انذا محاصر مهجور
ها انذا اموت
في ظلمة التابوت
يأكل لحمي ثعلب المقابر
تطعنني الخناجر
من بلد لبلد مهاجر .

ويبكي البياتي على الاسوار كما بكى الشاعر الجاهلي على الطلل :

عشرون عاما وانا ابكي على اسوارها واحمل الاكفان
لكنها ظلت كاورشليم
ملعونة تعج بالذباب والاصفار والحريم
اصيح منفيا على الاسوار
بابل يا مدينة الاشرار
قومي وغطي عري هذا الجسد الذابل بالازهار .

ويستقطر مأساة قلبه وحنينه الى المرأة الذاهبة والوصل المحترق بفراق دائم في صورة الارض المستقرة التي نضبت منها مياه نهريها فاحترقا في القيعان، ولكن شيئا ما ــ رمزا ــ لما يزل باقيا :

تبادل النهران
مجريهما واحترقا تحت سماء الصيف في القيعان
وتركا جرحا على شجيرة الرمان .

ويلتقي البياتي بالشاعر الجاهلي عبد يغوث صاحب هذا البيت :

فيا راكبا اما عرضت فبلغن
نداماي من نجران ان لا تلاقيا

فيحييه بقصيدة تظهر حسرة هذه الارض التي طال حنين الشاعر اليها ، ولم يسقها مطر ولم يعشب فيها زهر :

يا راكبا نجران
بلغ نداماي اذا ما طلع النهار
واقتحمت مدينة الموتى خيول النار
وشط بي المزار

ان لا تلاقيا ولا لقاء
وابك على طفولتي امام صمت القبر .
. . . . . .

وحتى العرار الذي تمتع من شميمه الصمة بن عبد الله القشيري للمرة الاخيرة حرمه البياتي على نفسه:

قالوا : « تمتع من شميم
عار نجد » يا رفيق
فبكيت من عاري
« فما بعد العشية من عرار » .

وعبر الشاعر الجاهلي عن قلقه وحيرته بالانتقال من مكان الى مكان اسير الطبيعة والانواء لا يهدأ ولا يستقر ، وعبر الشاعر الحديث اسير الفكرة والمعاناة عن تشتته وانبهاره بالتنقل من هوى فكري الى آخر ومن منفى الى ثان دون ان يجد الجد والحفيد خلاصا ، لقد احكم القدر قبضته على بعض الشعراء وقضى عليهم دوما بهذه المعاناة القاسية وبدونها لا يصبح للشعر معنى ولا للشاعر وجود فهو منفي ابدا في كل زمان ومكان ، وهذا النفي من سمات الشاعر الحقيقي ومن متطلبات الابداع الفني الذي قد يقترب في ذروته من الجنون .

ويضرب الشاعر المحدث في هذه المفازات الفكرية الشاسعة علوا وهبوطا ، امتدادا وتقلصا ، فلا يهدأ ولا يستقر فيغذ السير كالشاعر القديم في رحلات مجهولة، وقد يلف الحداء تهويماته اللامتناهية ايضا ، وكما كان طرفة ورهطه مخلعين مشردين اصبح بعض الشعراء المحدثين منفيين تطاردهم الظلال الموهومة .

ان الحمى الفكرية سمة من سمات الشعراء والفنانين في كل عصر وزمان فهم عبثا ينشدون الخلاص فيتطلعون الى آفاق مجهولة ، فاذا قيض للشاعر الجاهلي ان يستقر في ارض ثابتة ترعاه الحبيبة فلا شك انه سيرفض هذه الحالة بعد حين ويتمرد عليها ـ وان طال حنينه اليها ـ ويظل في سفر دائم وقلق مستمر ، واذا قيض للشاعر المحدث أن يعيش آمنا مطمئنا في وطنه فلا شك انه سيتمرد على حالة الهدوء والدعة وتؤدي به منازعه الشعرية الى ان يبحث عن عوالم جديدة ، فهل الشعر مغامرة حقا ؟! وهل الشاعر ضحية واسير ؟!

وهكذا التقى الشاعر الجاهلي والحديث ، كل حسب تطلعاته وظروفه ، في الحنين الى وطن هم فيه ، او في الغربة والحنين الى وطن هم ليسوا فيه ، فان كان ذلك كذلك ، وما دام هذا النسغ من ذاك الجذر ، ونحن بعد لم نقتطف الثمار ، فلم هذا الجدل العقيم بين الشعر القديم والجديد ؟!

بنغازي ـ كلية الآداب والتربية
جلال الخياط

هذا الشهر

تشريح جثة الاستعمار

تاليف غي دوبوشير
ترجمة ادوار الخراط

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالغزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاخفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .

وينتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب